

SIATS Journals

Journal of Islamic Studies and Thought for Specialized Researches (JISTSR)

jistsr.siats.co.uk \ Email: jistsr@siats.co.uk

WhatsApp: 0060178330229



مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية

المجلد **6**، العدد 1، يناير 2020م

e-ISSN: 2289-9065

التدرّج في المنهاج القرآني والمنهاج النبوي

THE GRADUAL APPROACH IN THE QURANIC METHODOLOGY AND THE PROPHETIC METHODOLOGY

ون سو كيم

Eun Soo Kim

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

eunsuya@gmail.com

1441هـ / 2020م

ARTICLE INFO
Article history:
Received 22/9/2019
Received in revised form110/2019
Accepted 30/12/2019
Available online 15/1/2020
Keywords:

Abstract

Religion of Islam is religion of the mercy. And the mercy of Allah(s.w.t) is manifest throughout the Quran and the Sunnah. When we reflect the texts from the Quran and the Hadith, we recognize that the gradual approach(tadarruj) in the Shariah is one of the requirements of the vast mercy of Allah and His great wisdom. This study aims to manifest and set examples of gradual approach from the Ayah and the Hadith, and to explain the way of gradual approach in the Quranic methodology and the Prophetic methodology and the difference between the two methodologies and the wisdom behind them. The analytical inductive method has been adopted, based on tracking and interpreting the previous studies. This study clarifies the legitimacy of the gradual approach in the Quran and the Sunnah by mentioning the evident examples of the Ayah and the Hadith in which the gradual approach has been applied. This study also ascertains the wisdom of the gradual approach in the Shariah and the positive consequence expected from its practice in dealing with people. One of the most important results from this study is confirmation of legitimacy of the gradual approach and mention of examples for the gradual approach though the Quran and the Hadith, and clarification about domain of applying the gradual approach.

Keywords: Gradual Approach, Tadarruj, Islam, Shariah, Dawah.



ملخص البحث:

دين الإسلام دين الرحمة. وآثار رحمة الله سبحانه وتعالى ظاهرة في القرآن الكريم والسنة الشريفة. ومَن تأمل نصوص القرآن والحديث أدرك أن أسلوب التدرّج في الشريعة هو من مقتضى رحمة الله الواسعة وحكمته البالغة. ويهدف هذا البحث إلى عرض أسلوب التدرّج وضرب أمثاله من الآيات والأحاديث، أي في المنهاج القرآني والمنهاج النبوي والفرق بينهما والحكمة منهما، باستخدام المنهج الاستقرائي التحليلي معتمداً على تتبُّع وتحليل الدراسات السابقة. ويشير هذا البحث أيضاً إلى الحكمة من أسلوب التدرّج في الشريعة والثمرة المرجوة من العمل بأسلوب التدرّج في التعامل مع الناس. ومن أهم النتائج من هذا البحث إثبات مشروعية أسلوب التدرّج، وذكر أمثال التدرّج في القرآن والحديث، وبيان نطاق العمل بأسلوب التدرّج.

كلمات مفتاحية: أسلوب التدرّج، التشريع، الدعوة، القرآن، السنة.

مقدمة

الحمد لله، الصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد: فإن دين الإسلام دين الرحمة. ومن رحمة الله تعالى أنه أنزل القرآن الكريم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. قال تعالى: **الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الضلنات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميدّ**[1]. وقد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– رؤوفاً بالمؤمنين، عزيزاً عليه عنتُهم. قال تعالى:**لقد جائكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** [2] وبُعث رحمة للعالمين، كما قال تعالى:**قل إنما يوحى إليا أنما إلهكم إلاه واحد فهل أنتم مسلمون**[3] . وآثار رحمة الله في دينه ظاهرة في الوحيَين، القرآن والسنة. وللمؤمنين أن يتدبروا في الآيات القرآنية والسنة النبوية ليذكروا نعمة الله عليهم ليجدوا كيف تتم رحمة الله عليهم، كما قال الله سبحانه:**وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف و لا تمسوهنةنضرارا لتعتدوا و من يفعل ذلك فقد ضلم نفسه, و لاتتخذو ءايات الله هزوا و اذكرو نعمت الله عليكم و ما إنزل عليكم من الكتاب و الحكمة يعضكم به و اتقوا الله و اعلموا أن الله بكل شيء عليم**[4]. ومن أظهر المضامين للرحمة في الشريعة: (أسلوب التدرّج في المنهاج القرآني والمنهاج النبوي).

أسباب اختيار البحث



قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**))[5]. ومن يتفقّه في حقيقة دين الإسلام فأدرك سعة رحمة الله وعمل بحكمة النبي فهو خير له: يزداد شكره لله تعالى لما جعل في دينه من اليسر والسماحة، ويكتسب رضوان الله عليه في عمله. ومن طرق التفقّه في الدين: التأمل في أسلوب القرآن الكريم والسنة الشريفة.

فقررتُ كتابة بحث عن التدرّج في المنهاج القرآني والمناهج النبوي، تذكيراً برحمة الله على المؤمنين ورغبةً في مدارسة سيرة النبي–صلى الله عليه وسلم– وأسلوبه في التعامل مع الناس.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى:

١. التبصير بأسلوب التدرّج في القرآن السنة.

٢. ذِكر بعض نصوص القرآن والحديث التي تؤكّد مشروعية أسلوب التدرّج في الشريعة.

٣. بيان الاختلاف في نطاق العمل بالتدرّج في المنهاج القرآني والمنهاج النبوي.

٤. توضيح الحكمة والثمرة المرجوة في أسلوب التدرّج.

منهج البحث

استخدمت في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، وذلك من خلال الاطلاع على الدراسات والأبحاث المتعلقة بموضوع البحث، مع التتبُّع والتحليل لما استنبطه العلماء السابقون في كتبهم والباحثون المعاصرون في مقالاتهم العلمية، استشهاداً بالآيات والأحاديث والآثار في موضوع هذا البحث.

تحديد المفاهيم اللغوية

تعريف التدرّج لغةً.

قال ابن فارس –رحمه الله–: (((دَرَجَ) الدَّالُ وَالرَّاءُ وَالْجِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُضِيِّ الشَّيْءِ وَالْمُضِيِّ فِي الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ دَرَجَ الشَّيْءُ، إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ))[6] فهو مضي الشيء مع الفترة. وتَدَرَّجَ : صيغة تَفَعَّلَ من دَرَجَ، ومعناه ((مُطَاوع دَرَجه وَإِلَيْهِ تقدم شَيْئا فَشَيْئًا وَفِيه تصعد دَرَجَة دَرَجَة))[7] . فالتدرّج إليه



تقدم إليه شيئاً فشيئاً، والانتقال من درجة إلى درجة أخرى.

تعريف التدرّج اصطلاحاً.

عرّف الشيخ صالح الفوزان –حفظه الله– التدرّج في الدعوة: ((الإتيان بالأهم فالأهم))[8]، وهو كما ترى مخصوص بالدعوة، وليس شاملاً. والتدرّج لا يجري في الدعوة فحسب، بل هو ظاهر في تشريع بعض الأحكام في القرآن الكريم كما يأتي بيان ذلك قريباً.

وعرّف د. يوسف محي الدين التدرّج بأنه : ((الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى متقدمة، للبلوغ إلى الغاية المنشودة، بطرق مشروعة مخصوصة))[9] هذا التعريف أدقّ وأشمل ؛ ففيه ذكر معنى التدرّج اللغوي وهو (الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى متقدمة)، والإشارة إلى الحكمة من التدرّج في قوله (للبلوغ إلى الغاية المنشودة)، مع القيد (بطرق مشروعة مخصوصة). وهذا التعريف يصلح لكل أنواع التدرّج التي ستُذكر في هذا البحث لاحقاً.

ومن قرأ السيرة النبوية بتأمل وجد فيها أسلوب التدرّج في الدعوة، ومن أبرز أمثلته: الانتقال من مرحلة الدعوة السرية إلى مرحلة دعوة الجهرية. فإن بداية الدعوة الإسلامية لم تكن جهراً، وكانت الدعوة الإسلامية متوجهة إلى الأفراد سرّاً لمدة السنين[10]. وكان الرسول –صلى الله عليه وسلم– لا يتمكن من الاجتماع بهم علناً، فاختار الرسول –صلى الله عليه وسلم– دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي للاجتماع فيها، وكانت على جبل الصفا وبابها الخلفي يدخله الداخل فلا يُرى[11]. ثم انقضت مرحلة الدعوة السرية بأمر الله تعالى. فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : ((لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ٌبي **تر تزَّ**[12] وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: «**يَا صَبَاحَاهْ**»، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «**يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**»، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، قَالَ: فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ**)) [13] .

وأسلوب التدرّج في الشريعة يمكن تقسيمه إلى قسمين: التدرّج في المنهاج القرآني والتدرّج في المنهاج النبوي.



والتالي بيان معناهما وضرب بعض الأمثلة لكلا النوعَين من التدرّج.

المطلب الأول: التدرّج في المنهاج القرآني

التدرّج في المنهاج القرآني هو التدرّج في تشريع الأحكام. وقد فرضت أركان الإسلام الخمس بالتدرّج. فعن ابن عباس –رضي الله عنه– قال: ((إن الله جلّ ثناؤه بعث نبيه محمدا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدّقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدّقوا بها زادهم الصيام، فلما صدّقوا به زادهم الزكاة، فلما صدّقوا بها زادهم الحجّ، ثم أكمل لهم دينهم))[14] هكذا كان تكليف العباد بالفرائض من الصلاة والزكاة والصيام والحج، على سبيل التدرّج. وكان بعض الفرائض أُكملت أحكامه بأسلوب التدرّج. وإليكم توضيح ذلك في أحكام الصلاة والصيام وتحريم الخمر.

1.التدرّج في فرض الصلاة

عن عائشة –رضي الله عنها– قالت : ((**فَرَضَ اللَّهُ الصَّلاَةَ حِينَ فَرَضَهَا، رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَأُقِرَّتْ صَلاَةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلاَةِ الحَضَرِ**))[15]

قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله– عند شرحه لهذا الحديث : ((تجتمع الأدلة السابقة أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب ثم زيدت بعد الهجرة عقب الهجرة إلا الصبح كما روى ابن خزيمة وابن حبان والبيهقي من طريق الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت **فرضت صلاة الحضر والسفر ركعتين ركعتين فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واطمأن زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان وتركت صلاة الفجر لطول القراءة وصلاة المغرب لأنها وتر النهار** اه ثم بعد أن استقر فرض الرباعية خفف منها في السفر))[16]

فشرعت الصلاة بثلاث مراحل تدرّجاً ؛

المرحلة الأولى : ركعتان ما عدا المغرب.

المرحلة الثانية : زيادة الركعتين ما عدا الفجر.



المرحلة الثالثة : تخفيف الصلاة الرباعية بالركعتين في السفر.

2. التدرّج في تشريع الصيام

عن عائشة –رضي الله عنها– : ((**كَانَ يَوْمُ عَاشُوراءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ صَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تَرَكَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ**))[17] فصيام عاشوراء: هو صوم ليوم واحد، ثم فرض صوم رمضان لشهر كامل. ثم بعد تمام فرض صيام رمضان شرعت أحكامه تدريجا على المرحلتين؛ مرحلة التخيير مرحلة الإلزام.

قال ابن الجوزي –رحمه الله–: ((قوله تعالى: **أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۚ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾** [18] نقل عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وابن عمر، وابن عباس، وسلمة بن الأكوع، وعلقمة، والزهري في آخرين في هذه الآية أنهم قالوا :كان من شاء صام، ومن شاء أفطر وافتدى، يطعم عن كل يوم مسكيناً، حتى نزل :**تشَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾** [19] فعلى هذا يكون معنى الكلام: وعلى الذين يطيقونه ولا يصومونه فدية، ثم نسخت)) [20] فهكذا لما استأنست النفوس بصوم رضمان تخييراً تم إيجابه إيجاباً عاماً جازماً، على أسلوب التدرّج.

فالخلاصة أن تشريع الصيام المفروض كان على ثلاث مراحل؛

المرحلة الأولى: صيام يوم عاشوراء.

المرحلة الثانية: صيام رمضان مع التخيير بين الصوم والإفطار مع الفدية.

المرحلة الثالثة: إلزام صيام رمضان دون الاختيار.

3. التدرّج في تحريم الخمر

مرّ تحريم الخمر على ثلاث مراحل.



أولاً: مرحلة التنفير. قال الله سبحانه وتعالى: **الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾** [21] فذكر أولا بعض معايب الخمر حتى يكرهها الناس استعداداً لتركها في مرحلة أخرى.

ثانياً: مرحلة التحريم الجزئي. قال الله عز وجل: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾** [22]. قال الشيخ الأمين الشنقيطي –رحمه الله– في هذه الآية : ((لما استأنست نفوسهم بأن في الخمر إثماً أكثر مما فيها من النفع، حرمها عليهم في أوقات الصلاة. فكانوا بعد نزولها، لا يشربونها إلا في وقت يزول فيه السكر قبل وقت الصلاة، وذلك بعد صلاة العشاء وبعد صلاة الصبح ; لأن ما بين العشاء والصبح يصحو فيه السكران عادة، وكذلك ما بين الصبح والظهر، وهذا تدريج من عيبها إلى تحريمها في بعض الأوقات))[23] .

ثالثاً: مرحلة التحريم الكلي. قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾** [24] فلما استأنست نفوسهم بتحريمها تحريماً جزئياً حرّمها الله عليهم تحريماً عاماً جازماً.

فتبين للقارئ بما سبق أن بعض الشرائع والأحكام تم فرضها على التدرّج وكان ذلك على عدة مراحل.

وههنا يحسن التنبيه أن تشريع الأحكام تدرّجاً لا يُستدل به على جواز العمل بالتدرّج في الحكم الثابت التي ينصّ عليه القرآن والحديث. قال الله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ [25].فلا يجوز لأحد أن يحلّل ما حرّمه الله ويحرّم ما حلّله الله بالنظر إلى أول الأمر ؛ قد استقرت أحكام الإسلام مع وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فلن يتغير شيء من الأحكام ما دام نصَّ عليها الكتاب والسنة. وقد نبّه على هذا



غيرُ واحد من العلماء الكبار المعاصرين.

قال الشيخ الألباني –رحمه الله– : ((إننا لو تدرجنا مع شارب الخمر مثلاً، وسمحنا له وهو المسلم الحديث عهدا بالإسلام، باحتساء هذا القليل، لخالفنا الإسلام وأوقعنا غيرنا في هذه المخالفة، وفتحنا باب التحليل لما حرم الله، أمام الآخرين من ضعاف الدين، لهذا نرفض أسلوب التدرّج، ندعو إلى تقديم الإسلام كما هو)) [26]. وقال الشيخ ابن العثيمين –رحمه الله–: ((مثلًا الخمر، لا نقول: أولا نرغب الناس في تركها، ثم نحاولهم أن يتركوها أوقات الصلاة، بل نقول لهم: هي حرام، وندعوهم بالتي هي أحسن فننظر إلى حالهم وندعوهم على حسب حالهم))[27] .

المطلب الثاني : التدرّج في المنهاج النبوي

أسلوب التدرّج في المنهاج النبوي وهو التدرّج في تطبيق الحكم. والتدرّج في تطبيق الحكم يشتمل على الأمور الآتية؛

1. النظر إلى حال المدعو:

هذا التدرّج مع من يراد تبليغهم في العمل. فلا تُطلب جميع الأحكام من الناس جملة واحدة، بل يُتدرج معهم في تبليغها ويُبدؤوا بما هو الأهم فالأهم. وهذا الأسلوب لا يتم إلا بالنظر في أحوال المدعوين ؛ هل هم حديثو عهد بالإسلام، وهل يتحملون العمل بالأحكام بسهولة أو يحتاجون إلى وقت؟ قال النبي –صلى الله عليه وسلم– : ((**يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ، لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ**))[28] فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى حال قريش وترك هدم الكعبة وإعادة بنائها، لعدم قدرتهم على تحمل هذا الحكم.

وقد أمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– معاذ بن جبل –رضي الله عنه– برعاية حال القوم الذين أرسله إليهم من أهل اليمن، حيث كانوا أهل كتاب يراد بهم الانتقال من دينهم، الذي ترسخت تعاليمه فيهم، إلى دين الإسلام الجديد. فقال له رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يحدد له بما يبدأ؟ وماذا يقدم؟ وكيف يبلغ؟ : فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ مُعَاذًا –رضي الله عنه– ، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا**



لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ))(29)

فانظر إلى ما وجّهه النبي –صلى الله عليه وسلم– إليه معاذ بن جبل –رضي الله عنه–: لم يأمر معاذاً الداعية أن يلزم المدعوين جميع الأحكام ويتشدّد عليهم. فكأنه –صلى الله عليه وسلم– يقول: ابدأ مع المدعويين بالأهم وهو الشهادتين. ثم إذا استقرّ الإسلام في قلوبهم واستجابت لك نفوسهم انتقل يا معاذ إلى ما دون ذلك من الأمور. لأنك لا تستطيع أن تبلغ جميع شرائع الإسلام دفعة واحدة، وهم أيضاً لا يتحملونها.

ويوضح ابن تيمية –رحمه الله– هذا المعنى بقوله: ((أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به ولم تأت الشريعة جملة ...كذلك المجدد لدينه، المحي لسنته، لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها ... وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم، والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين، ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجبا عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجبا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان(30))).

2. التعرّف على المدعو:

من أهم مقاصد الدعوة هو تبليغ الدين الإسلام إلى المدعو. ولكن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يبدأ مع المدعو بكلمة التوحيد في كثير من الأحوال، بل بدأ بالتعرف على المدعو تدرّجاً إلى الغاية بالحكمة والموعظة الحسنة.

فلما خرج –صلى الله عليه وسلم– للدعوة إلى الطائف قابل الغلام اسمه عَدّاس، فقال –صلى الله عليه وسلم–: ((**وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ، وَمَا دِينُكَ؟**)) قَالَ: نَصْرَانِيٌّ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نِينَوَى...(31) فبدأ –صلى الله عليه وسلم– معه بالتعرف على بلاده وديانته، فكان هذا التعرف نقطة البداية لانشراح صدر المدعو إلى دين الإسلام.

وقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفداً من الخزرج في موسم الحج عند عقبة منى. فقال لهم: ((**مَنْ أَنْتُمْ؟**))



قَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: ((**أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ؟**)) قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ:((**أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ؟**)) قَالُوا: بَلَى. فَجَلَسُوا مَعَهُ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ.(32) فكان التعرف مقدمة للمدعوين تدريجاً لما يأتي بعده من الدعوة والإرشاد. وجاء وفد عبد القيس بعد فتح مكة فقال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((**مَنِ الْقَوْمُ؟ – أَوْ مَنِ الوَفْدُ؟ –**)) قَالُوا: رَبِيعَةُ. قَالَ: ((**مَرْحَبًا بِالقَوْمِ، أَوْ بِالوَفْدِ...**))(33) هكذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يتعرف على المدعوين ويرحّب بهم أولاً قبل بدأ بالدعوة لهم. لأن التعرف على المدعو والترحيب به والثناء عليه تطيّب النفس وتزيل الوحشة منها. فأسلوب التدرّج حكمة مطلوبة للدعاة حتى يتمكنوا به من فتح قلوب المدعوين وتطييب أنفسهم للرسالة الإسلامية.

3. اتخاذ فترة لتغير حال المدعو:

يتضح هذا الأسلوب فيما وقع مع ثُمامة بن أُثال –رضي الله عنه– أثناء دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم-. كان ثمامة من أشد الناس عدواناً على الإسلام؛ حتى أنه قتل بعض الصحابة. فلما سافر إلى مكة لعبادة الأصنام أُلقي عليه القبض فصار أسير المسلمين في المسجد. فعن أبي هريرة –رضي الله عنه-: ((**بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**))(34)

لم يقل النبي –صلى الله عليه وسلم-: اترك الأصنام يا ثمامة وأسلم لله تعالى. بل بدأ بالمعاملة الحسنة معه ثم أعطاه فترة حتى يفكّر ثمامة في شأنه وشأن دين الإسلام. ولم يستعجل –صلى الله عليه وسلم– الوصول إلى الغاية، وهي إسلام ثمامة، ولكن جعل المدعو يمرّ المراحل حتى يتغير حاله.

وبيّن الحافظ ابن حجر التأثير الإيجابي من تدرج النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة ثمامة فقال : ((إنه (أي



ثمامة) قدّم أول يوم أشق الأمرين عليه وأشفى الأمرين لصدر خصومه وهو القتل، فلما لم يقع اقتصر على ذكر الاستعطاف وطلب الإنعام في اليوم الثاني فكأنه في اليوم الأول رأى أمارات الغضب فقدّم ذكر القتل فلما لم يقتله طمع في العفو فاقتصر عليه، فلما لم يعمل شيئا مما قال اقتصر في اليوم الثالث على الإجمال تفويضا إلى جميل خلقه صلى الله عليه وسلم))(35) .

لو عرض النبي –صلى الله عليه وسلم– على ثمامة الإسلام مباشرة في أول يوم كان يشقّ عليه القبول، لما كان عليه من القبض والربط وشدة الخوف وبغضه القديم للإسلام. لكن تدرّج النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته له بالمعاملة الطيبة وإعطاء الفترة لسكون الإثارة وتغير الحال، فأسلم ثمامة بأسلوبه –صلى الله عليه وسلم– الحكيم وخلقه العظيم.

المطلب الثالث: حكمة التدرّج في التشريع والتطبيق

الحكة من أسلوب التدرّج: هي تهيئة النفوس للقبول والتلقّي.

قال عائشة –رضي الله عنها– : ((**إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا**))(36) . فحرمت الخمر والزنا بعد ثبوت إيمان الصحابة –رضي الله عنهم أجمعين–. وواضح من هذا الحديث أن أسلوب التدرّج قد هيّأ نفوس الصحابة لقبول الأحكام بدون شق الأنفس. قال ابن حجر –رحمه الله– : ((أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللكافر والعاصي بالنار فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام ولهذا قالت ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف))(37) .

فالتدرّج هو الوسيلة المثلى لتقبل التكاليف وامتثالها من غير ضجر ولا عَنَت. ومن ناحية الدعوة فأسلوب التدرّج هو طريقة تعامل الداعية مع المدعو بالرفق واللطف. ويرجى لمن يتعامل به عطاءٌ من الله ما لا يعطي من يتعامل بالعنف، لقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : ((**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى**



الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ))[38]. بل هو من الأساليب الواجبة على الدعاة، كما أمر الله تعالى موسى وهارون–عليهما السلام– عند بعثهما إلى فرعون: **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾**[39] .وأسلوب التدرّج من الأساليب الحكيمة أيضاً لتحقيق قول النبي –صلى الله عليه وسلم– : ((**يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلاَ تُنَفِّرُوا**))[40]، لما فيه من التيسير واللين واللطف.

الخاتمة

من خلال الاطلاع على جملة من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والسيرة النبوة المتقدمة في هذا البحث نخلص إلى النتائج التالية:

1 – تم تشريع بعض الأحكام بأسلوب التدرّج في القرآن الكريم لمقتضى رحمة الله تعالى.

2 – قد جرى أسلوب التدرّج في تطبيق الحكم والدعوة إلى الإسلام في السيرة النبوية لتحقيق الحكمة.

3 – حكمة أسلوب التدرّج هي تهيئة النفوس والرفق بها والتيسير لها.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الهوامش

(1) سورة إبراهيم، الآية 1.

(2) سورة التوبة، الآية 128.

(3) سورة الأنبياء، الآية 107.

(4) سورة البقرة، الآية 231.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه في باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، 25/1، ح71.

(6) ابن فارس، أحمد القزويني. (1979). معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. الأردن: دار الفكر. ج: 2، ص: 275.

(7) مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المعجم الوسيط. القاهرة: دار الدعوة. ص277.

(8) المطلق، إبراهيم بن عبد الله. (1996). التدرّج في دعوة النبي. الرياض: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – مركز البحوث والدراسات الإسلامية. ط:1، ص: 140-141. وهذا التعريف حصله مؤلف الكتاب من خلال مقابلة علمية مع الشيخ في 7 / 5 / 1414 هـ.

(9) محي الدين، يوسف أبو هلالة. التدرّج بين الشريعة والدعوة. (1991). الرياض: دار العاصمة. ط: 1، ص7.

(10) انظر : ابن هشام، عبد الملك. (1955). السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق: مصطفى السقا. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. ط: 2. ج: 1، ص: 262.

(11) الغزالي ، محمد السقا. (2006). فقه السيرة. دمشق: دار القلم. ط: 1. ص: 187.

(12) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

(13) أخرجه مسلم في صحيحه في باب في قوله تعالى: {وأنذر عشيرتك الأقربين}، 193/1، ح355.

(14) ابن جرير، محمد الطبري. (2000). جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق: أحمد محمد شاكر. مكة المكرمة: مؤسسة الرسالة. ط: 1. ج: 22، ص: 203.

(15) أخرجه البخاري في صحيحه في باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟، 79/1، ح350.

(16) ابن حجر، أحمد بن علي. (1979). فتح الباري شرح صحيح البخاري. تحقيق: محب الدين الخطيب. بيروت: دار المعرفة. ج: 1، ص: 464.

(17) أخرجه البخاري في صحيحه في باب صيام يوم عاشوراء، 44/3، ح2002.

(18) سورة البقرة، آية 184.

(19) سورة البقرة، آية 185.

(20) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (2001). زاد المسير في علم التفسير. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتاب العربي. ط: 1. ص: 142.

(21) سورة البقرة، آية 219.

(22) سورة النساء، آية 43.

(23) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. (1995). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ج: 5، ص: 264.

(24) سورة المائدة، آية 90-91.

(25) سورة المائدة، آية 3.



([26]) الشيباني، محمد بن إبراهيم. (1987). حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه. القاهرة: مكتبة السداوي للنشر والتوزيع. ط:1، ص: 398-399.

([27]) المطلق، التدرّج في دعوة النبي، المرجع السابق، ط:1، ص: 143. وهذا الفتوى حصله مؤلف الكتاب من خلال مقابلة علمية مع الشيخ في 21 / 4 / 1414 هـ .

([28]) أخرجه البخاري في صحيحه في باب من ترك بعض الاختيار، مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه ، 37/1، ح126.

([29]) أخرجه مسلم في صحيحه في باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، 50/1، ح19.

([30]) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1995). مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. المدينة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ط:1. ج20، ص60.

([31]) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، المرجع السابق، ج1، ص421.

([32]) المرجع السابق. ج1، ص428.

([33]) أخرجه البخاري في صحيحه في باب: أداء الخمس من الإيمان ، 20/1، ح53.

([34]) أخرجه البخاري في صحيحه في باب الاغتسال إذا أسلم، وربط الأسير أيضا في المسجد، 99/1، ح462.

([35]) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المرجع السابق، ج: 8، ص: 88.

([36]) أخرجه البخاري في صحيحه في باب تأليف القرآن، 185/6، ح4933.

([37]) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المرجع السابق، ج: 9، ص: 40.

([38]) أخرجه مسلم في صحيحه في باب تأليف القرآن، 203/4، ح2593.

([39]) سورة طه، الآية 44.

([40]) أخرجه مسلم في صحيحه في باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، 25/1، ح69.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (2001). زاد المسير في علم التفسير. تحقيق: عبد الرزاق المهدي . بيروت: دار الكتاب العربي.
2. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1995). مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. ا لمدينة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
3. ابن الحجاج، مسلم. صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
4. ابن حجر، أحمد بن علي. (1979). فتح الباري شرح صحيح البخاري. تحقيق: محب الدين الخطي ب. بيروت: دار المعرفة.
5. ابن فارس، أحمد القزويني. (1979). معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. الأردن : دار الفكر.



6. ابن هشام، عبد الملك. (1955). السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق: مصطفى السقا. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

7. البخاري، محمد بن إسماعيل. (2001). صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، بيروت: دار طوق النجاة.

8. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. (1995). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

9. الشيباني، محمد بن إبراهيم. (1987). حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه. القاهرة: مكتبة السداوي للنشر والتوزيع.

10. الغزالي ، محمد السقا. (2006). فقه السيرة. دمشق: دار القلم.

11. مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المعجم الوسيط. القاهرة: دار الدعوة.

12. محي الدين، يوسف أبو هلالة. (1991). التدرّج بين الشريعة والدعوة. الرياض: دار العاصمة.

13. المطلق، إبراهيم بن عبد الله. (1996). التدرّج في دعوة النبي. الرياض: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – مركز البحوث والدراسات الإسلامية.

